المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ١٣٢٠ — ١٧ نوفمبر (تشرين ٢) سنة ١٩٠٢)

المستقبل للاسلام

(بقلم صاحب السماحة السيد الشيخ محمد توفيق البكري شيخ مشايخ الصوفية(١))

(الفصل الاول في رأس مال الاسلام)

(المكان والسكان)

ان مستقبل الأمم يتوقف في الحقيقة على أمرين طبيعيين هما كثرة السكان وخصب المكان فاذا استوفت الأمة حظها من هذين الأمرين عظم مستقبلها بقدر ذلك مهما حرمت في الحال من الاسباب الأخرى الكسبية كالعلم والأخلاق والقوانين والحكومة وغير ذلك فان هذه جميعها يأتي بها دور الزمان . وان أخرتها آونة طوارق الحدثان . ولذلك قال (مونتسكيو) و (تين) وغيرهما أن مستقبل الصين أكبر من مستقبل أية دولة أخرى . ومن شاهد رُقِيَّ اليابان وما كانت عليه الروسيا منذ ثلاثة قرون وما هي عليه الآن من ضخامة السلطان لا يشك في صواب ذلك القول المتقدم . وقد أشار ابن

(١) من قراء المنار في الاقطار النائية من لا يعرف البكري . هو من بيوتات الحسب والمجد وقد انفرد في صقعه بتلقي العلوم في مدارس أوربا العالية ونيل مرتبة قاضي عسكر من الدولة العلية . وهو في العربية خزانة الأدب . ولسان العرب . يشهد له بذلك شعره فحل . ونثره جزل .

خلدون الى شيء من هذا حيث قال ان اتساع نطاق الدولة يكون بقدر اتساع عصبيتها في الاصل . وقال الشاعر : وانما العزة للكاثر . فاذا تقرر ذلك علمنا ان مستقبل الاسلام كبير وشأنه خطير فان حظه من هذين الأمرين وافر ، وقسطه متكاثر ، واليك البيان

اذا تأمل المسلم في مصور الجغرافية يجد ثلاثة عوالم قد تقسمت الارض وهي العالم الاسلامي في الوسط والعالم المسيحي عن يساره والعالم الوثني عن يمينه على هيئة قلب وجناحين . ويرى ان قسط العالم الاسلامي من هذا الاقتسام عظيم ، ونصيبه جسيم فهو يمتد في فسحة من الارض بدؤها بحر الأطلنطيق ، ونهايتها سيف الباسيفيك آخذة من حواشي سيبريا شمالا الى جزر المحيط جنوباً . أقاليم متصلة ، وأقطار غير منفصلة ، وأمصار متناخمة ، وأخياف متلاحمة ، وبين ذلك قصور وخيام ، ودور وآطام ، ووبر ومدر ، وبدو وحضر ، بقاع هي أطيب المعمور رقعة ، وأمرعه نجعة ، فيها النيل والفرات ، وسيحون وجيحون ، فيها أودية مصر ، وسهول الهند وميطان الصين وسواد العراقين ، وبطاح الأناطول وجبالها ، وريف فارس ورمالها ، فيها مرقد النبي العربي الهاشمي ، ووطن المسيح بن مريم ، ومبعث موسى الكليم ، ومهبط الوحي على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الى غير ذلك من هواء طلق ، وماء عذب ، وجو سجوف حسنات وراء حسنات ، تقصر دونها الأبصار ، وتموت حسرة عليها الأقطار ، ذهب بعض مجوس الهند الى لوندرة فقال له بعض أهلها كيف أنتم تعبدون الشمس ؟ فقال المجوسي : وأنتم لو رأيتموها لعبدتموها

* * *

ثم ان هذه السعة في الارض والبسطة في الخصب التي رزقها العالم الاسلامي أصل كبير في نمو أفراده وحسن حالهم اذ ارتباط المكان بالمكين في السعادة والشقاء والقلة والكثرة امر مقرر في علم الاجتماع الانساني . قال (لوبون) : « ما دامت الارض القابلة للزراعة كافية للسكان يتأتى لهؤلاء ان يزيدوا عدداً فيكثرون ويحيون بالفعل فان تعادلت موارد الأرض وعدد السكان بقي هؤلاء على حالتهم لا يزيدون ولا ينقصون فان زاد عديدهم عن موارد الأرض وقعوا في افرة الشدائد والضيق وتواترت عليهم المصائب والأزمات الى ان تأتي حروب جارفة او اوبئة قاشرة فتعدل الكفتين » . هذه حقائق بسيطة ومع ذلك قد تغيب من افهام كبار الخواص واشهر الكتاب فلا يفتأون يطلبون كل يوم زيادة السكان بأية وسيلة كانت بلا مراعاة لما

تقدم وقد وقع في مثل هذا الخطأ (جول سيمون) وزير معارف فرنسا السابق على سعة علمه حيث قال في خطاب ألقاه على مجمع المعارف سنة ١٨٦٨ : « ان من يمكنه ان يزيد سكان فرنسا مليوناً من النفوس يفيدها اكثر ممن يزيد حدودها ببعض فراسخ من الأرض بواسطة الحرب والدم بألف ضعف » وهذا كلام خلو من الصواب لأن من يزيد مساحة فرنسا يكثر مواردها فيجعل الزيادة في السكان محتمة : ومن شك في هذه الحقيقة احلناه على قول استاذ لا يشق له غبار في هذا المضمار وهو (بلييج) الشهير قال : « قد اقتضت الحال زيادة السكان في بلدان اوربا زيادة كثيرة غير طبيعية حتى اختلت النسبة بين عديدهم وبين غلات تلك البلاد فلا يمضي غير حقبة من الزمن حتى تعجز الأرض عما يفي بحاجاتهم مهما انهكوا قواها بمختلف الأسمدة وعندها لا يحتاج الى نظريات علمية او قياسات فنية لإيضاح الناموس الطبيعي الذي يأمر الانسان بان لا يغفل عن المحافظة على ابواب رزقه ويعاقبه العقاب الأليم عند مخالفة ذلك . ولا يكون ثمة للامم الاوربية من حيلة ولا مخلص الا ان تتفانى لتبقى فترى اذن امثال مجاعات سنة ١٣١٦ وسنة ١٣١٧ وحروب بعد ذلك تليها حتى يحمل الأمهات جيف القتلى لاطعام اطفالهم كما وقع ذلك في (حروب الثلاثين سنة) المعروفة فكل ذي دُربة وروية دقق النظر في امر ممالك اوربا ومستقبلها يجدها غير قائمة على اسس متينة بل على أسنة الإبر » اه

***

هذا : وربما ذهب بعض العارفين الى أن طبيعة أرض الشرق مفسدة للهمم ، مقعدة للأمم ، فلا تكون اذن هذه الأرضون من التمم بل من النقم . وهذا رأي تفنده الأقيسة الصحيحة ، والآراء النافذة . قال (فوليتر) في وصفه مانصه : « نسأل من يذهب الى أن طبيعة الأجواء يتوقف عليها حالة الأمة وأخلاقها لما قال الامبراطور (جوليان) ان الذي اعجبه من أهل باريس هو متانة أخلاقهم وأجذهم بالجد والصلابة والسكون في طباعهم . وهاهي أجواء باريس كما هي وأهلها فيها الآن أخف احلاما وطباعاً من فراشة . أطفال في زي رجال ، وصغار وان كانوا كبارا . وهؤلاء المصريون الذين يصفهم لنا المؤرخون بقوة العزائم ومتانة الطباع وعظم الفتوح أصبحوا الآن لمة رخوة ضعيفة العزائم ، طعمة لكل آكل . ولم لا يوجد الآن في أثينا مثل (أناكريون) و (اوستطاليس) و (زوقسيس) . ولم استعاضت روما عن (شيشيرون) و (فرجيل) و (قاطون) وعن

(تليف) قوماً بهتا لايحسنون أن يقولوا ولا أن يعملوا . أعظم أمانيهم يحصر في أن يكون الزيت رخيص الثمن لديهم . وقد كان من عادة (شيشيرون) الخطيب الروماني أن يهزأ بالانكليز ويتنادر عليهم حتى انه كتب مرة في رسالة لاخيه (أقلنتوس) الذي كان ضابطاً مع قيصر في غزوته التي غزاها بانكلترا يسأله مستهزأ ان كان وجد ثمة فلاسفة كباراً أو رياضيين عظاماً . فهلا علم (شيشيرون) أنه نشأ بعده فيها أعظم فلاسفة العالم ورياضيه تحت تلك السماء المظلمة بعينها . هذه كلها أمثلة تدل أن ليس للاقليم أثر يذكر في ارتفاع الامم وانخفاضها بل العوامل الأخرى مثل الحكومة أو الدين تفعل في ذلك أكثر منها بمائة ضعف .

***

كأن الله سبحانه وسعدانه أراد أن لا تنزع هذه البلاد الجميلة من أيدي المسلمين اذا أعجزهم الضعف يوماً ما عن صونها حتى يؤوبوا الى القدرة على حفظها فجعلها شبه وقف عليهم وذلك ان جعل وسطها الطبيعي غير صالح لأن تعيش فيه الأمم المتغلبة الآن وهي الأمم الأوربية وليان هذا نقول :

قد تقرر في الطبيعيات أن الحيوان أو النبات أو الانسان اذا نشأ في وسط طبيعي لايعيش في وسط آخر غير مماثل له وأقيم على ذلك هناك البرهان . وعندهم انه كما لا يمكن للسمك أن يعيش في البيداء ، ولا للناقة أن تدوم في الماء ، ولا للنخلة أن تنبت بين صخور الجليد ، لايمكن للانكليزي أن يستوطن الهند ، ولا لابن للالمان ، أن ينبت في في السودان . قال (لوبون) في كتاب الفسيولوجي : « ذكر بعض المؤلفين أن الانسان يمتاز عن الحيوان بكونه يعيش في كل جو وعلى كل أرض . وهذا خطأ عظيم ، ووهم كبير ، فقد أثبت التاريخ مراراً أن أهل الشمال لايمكنهم العيش في أرض الجنوب . انظر الى البربر من أهل الشمال وبلاد الجليد الذين فتحوا أرض الرومان وسكنوا أقاليمها الحارة كيف لم يمض قرن واحد حتى أفناهم الموت وأتى عليهم الفناء فلم يبق من القوطيين واحد في ايطاليا . وهذه مصر حكمتها عشرون أمة فأكلتهم وبقي الفلاح المصري كما هو على أرضه . وكذلك عجز الرومان عن أن يستوطنوا أفريقية مع انهم استوطنوا أسبانيا وأرض الجول حتى جعلوها بلاداً لاتينية بحتة . ولاريب أننا سنلاقي في الجزائر ما لاقاه فيها الرومان في سابق الزمان فتهلك هذه الارض ذراري فاتحيها مالم يفعلوا كما يفعل الانكليز في الهند من ارسال أبنائهم ليتربوا في أوربا . وبالجملة إن الانسان

اذا اختلف وسطه الطبيعي هلك وخصوصاً اذا جاء من الشمال الى الجنوب » اه.

*** ***

جميع ما تقدم متعلق بالمكان أي مواطن الاسلام وبلاده. أما السكان وهم الامم المسلمة فحدث ولله الحمد عن حصى البطحاء، ورمال الدهناء، أو نجوم السماء، كثرة آحاد، ووفرة أعداد، فمن هؤلاء في أفريقية ماترى:

٩ ٠٠٠ ٠٠٠	في مرّاكش
٤ ٥٠٠ ٠٠٠	« الجزائر
١ ٥٠٠ ٠٠٠	« تونس
١ ٤٠٠ ٠٠٠	« طرابلس
١٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« مصر
٦ ٠٠٠ ٠٠٠	« السودان المصري
٤ ٠٠٠ ٠٠٠	« الصحراء الكبرى
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	« السودان الذى تحت حماية فرنسا
٩ ٠٠٠ ٠٠٠	« السودان الذى تحت حماية انكلترا وفي النيجر
٥ ٠٠٠ ٠٠٠	« السودان الاوسط كواداي وباجرمي ونحوهما
١ ٥٠٠ ٠٠٠	« الكونغو
٤ ٠٠٠ ٠٠٠	« توبو وقامرون
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	« الأوغنده
٣ ٥٠٠ ٠٠٠	« الأريطرا والحبشه
٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« موزمبيق ومدغشقر والكاب والزنجبار وأوبوك وأفريقيا الوسطى
١٠٥ ٤٠٠ ٠٠٠	مجموع ما في أفريقا
	وفي أوربا ماترى
٢ ٥٠٠ ٠٠٠	في تركية أوربا
٧٠٠ ٠٠٠	« البوسنه والهرسك
١ ٠٠٠ ٠٠٠	« البلقار والروملي الشرقي
٦٠ ٠٠٠	« رومانيا
٤ ٦٦٠ ٠٠٠	المجموع

٢٠ ٠٠٠	في الصرب
١٠ ٠٠٠	« الجبل الاسود
٣٠ ٠٠٠	« اليونان
٢٥٠٠ ٠٠٠	« روسيا أوربا والقفقاس
٦٨٢٠ ٠٠٠	مجموع مافي أوربا
	وفي آسيا ماتري
٧ ٠٠٠ ٠٠٠	في الاناطول
٤ ٠٠٠ ٠٠٠	« أرمينية
٢٥٠٠ ٠٠٠	« العراق
٢ ٠٠٠ ٠٠٠	« الشام
١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	« جزيرة العرب
١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	« العجم
١٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« روسية آسيا
٩ ٠٠٠ ٠٠٠	« أفغانستان
٥ ٠٠٠ ٠٠٠	« بلوجستان
٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« الهند
١ ٠٠٠ ٠٠٠	« سيام
٢ ٠٠٠ ٠٠٠	« الهند الصيني
٤٥ ٠٠٠ ٠٠٠	« الصين
١٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	مجموع مافي آسيا
	وفي الاقيانوس ماتري
٥ ٠٠٠ ٠٠٠	في فيلبين
٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« سوماطرا
٣٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« الجاوا
٥ ٠٠٠ ٠٠٠	« بورنيو
٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« ماليزيا وغيرها من الجزائر
٥١٠ ٠٠٠ ٠٠٠	مجموع مافي الاقيانوس

فهذه ثلاثمائة وستون مليونا من النفوس خلف لذلك السلف الذين يقول الله سبحانه فيهم « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا »

***

وهذه الأمة الكريمة ان حرمت الآن كثيراً من أسباب العلم والعمل فإنها لم يزل في أمزجتها آثار شريفة وصفات قويمة من أوليتها وارث سلفها تمتاز به على كثير من الامم. قال القسيس (اسحاق طيلر) « ان الاسلام يمتد في أفريقيا وتسير الفضائل معه حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره. والشجاعة والإقدام من أنصاره. ومن الأسف ان السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين » وقال (كونتسن) : « يمتاز المسلمون في الصين على مواطنيهم من الوثنيين برفعة في السجايا وشرف في الاخلاق قد طبعته في نفوسهم ونفوس آبائهم وصابا القرآن بخلاف الوثنيين فانهم في سقوط تام من حيث ذلك »

ومن أهم النعوت التي يمتاز بها المسلم عزة النفس فهو سواء في حال بؤسه ونعيمه لا يرى العزة الا لله ولرسوله وله. وهذه الصفة التي غرسها الدين في نفوسهم اذا توفرت معها الوسائل كانت أعظم دافع لها الى التسابق الى غايات المدنية ورقيات الكمال. وان أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجد من فتور في حركاتهم وقصور في هممهم وخصوصاً اذا بغى عليهم الجهل فظنوا أنهم أدنى الملل كطائفة الدهير وماثلك.

***

ثم ان هذه الامم الاسلامية وان اختلفت بهم البلدان وتباينت البقاع والميطان، وتنوعت الاجناس وافترقت الألسنة فقد وحدتهم وحدة الاسلام وجمعتهم جامعة الدين وهي جامعة كبرى تتلاشى أمامها الجامعات الصغرى وتلغى الفروق فيكون جميع المسلمين بها اخوانا. قال تعالى: « انما المؤمنون إخوة » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » فوطن المسلمين هو مجموع الأمة الاسلامية في الدين

وهو الذي قيل فيه : حب الوطن من الايمان . (١) وليس المراد به حب التربة والمسكن والاهل والعشيرة ولو كان كذلك لما كانت الهجرة في الاسلام . ولما نطق الكتاب بالحث عليها والامر بها . قال الله تعالى : « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » فمن قال من المسلمين في أية بقعة من الارض (وطني) فقد قال (ديني) وقال تعالى : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » وقال سبحانه : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » ولهذا نرى المسلمين مهما تباعدوا او تباغضوا لا تزال تميل هاته الى الجامعة عملها فيهم يسرون لسرور بعضهم ويحزنون كذلك وان افترقت بهم البلدان مابين المشرق والمغرب . وقد عظمت الصلابة في هذه الجامعة الدينية والرابطة الاسلامية حتى سماها غيرهم الآن (تعصباً) (٢)

على ان التعريف بالوطن على هذا النحو هو غاية ماترقى اليه الامم . وتبعث نحو الهمم . قال أدمون ديمولان : والمهاجر من الانكليز السكسونيين يشعر دائما بأنه انما يرحل عن بلده مستصحباً لوطنه اذ هو يرى الوطن حيث يعيش المرء حر ثم قال : « والتصر كل التصر للامم التي وطدت أركان نظامها على دعائم هذه الوطنية »

والتعريف بالجامعة أيضاً على مثال ماتقدم سيرٌ مع سنة العمران وذلك ان أول اجتماع للانسان كان على شكل جمعيات صغيرة جامعتها النسب كبني دار وبني أب وبني شيبان الخ ثم ارتقى الى جمعيات أكبر من الأولى جامعتها الجنسية وهي التي عليها الامم الآن ويقول العلماء انه سيرتقي الى جنسيات كبرى واحدة جامعتها الانسانية

---

(١) المنار — اشتهر ان هذه الكلمة حديث وقد نبهنا غير مرة على أنه موضوع

(٢) ان في مصر من أحداث السياسة من يكتب ويخطب لينسخ هذه الآيات الكريمة ويفرق هذه الجامعة بكلمات سخيفة مثل « الوطنية الحقة » و« الدخلاء » فهذه الوطنية الباطلة لا ترضي الاسلام والمسلمين ولا غيرهم من وطنيين ومهاجرين لأنها هضمت كل حق . أما الجامعة الاسلامية فانها تعطي كل ذي حق حقه « لهم مالنا وعليهم ما علينا » ولئن وجد شيءٌ من التعصب في بلاد المسلمين فانما وجد بتراخي عرى هذه الجامعة العادلة كما بيناه مرارا

وترى الامم تقرب من تلك الغاية النهائية بتأليف الاجناس المتقاربة الى جنس أعم كبني الجرمان والسكسون والسلاف واللاتين في ذلك الآن . فاذا تبين هذا كانت الجامعة الاسلامية التي أسسها بل لأمت جمعيات الأجناس وتقلها الى جامعة عظمى يكون في كل مسلم اليوم بإزاء من ٣٦٠ مليوناً خطوة كبرى في السير نحو تلك الجامعة التي تنضم أفراد الانسان والتي يسعى وراءها الاسلام من ثلاثة عشر قرناً . (١) فشأن الجامعة الاسلامية أشبه بشأن الجامعة الامريكية التي تضم الاجناس المختلفة فيها شرقاً وغرباً لتأييد مبدإ (مونرويه)

ولا يقول بعض جهلتنا من المسيحيين ان التشبث بالجامعة الاسلامية يفقد المسلمين الارتباط بهم فانهم لو صدقوا في هذا القول لفقد المسلمون بذلك عشرة ملايين نفس هم كل المسيحيين الذين في بلاد الاسلام وكسبوا ٣٦٠ مليوناً من اخوانهم . على ان الامر ليس كذلك فان رابطة الذمة تقوم مع هؤلاء المسيحيين مقام الدين فلا يحرم الفريقان من التعاون والتعاضد للعمل . وقد أمر القرآن بمزيد الحسنى معهم قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

هذا وان الاسلام آخذ في الازدياد والنمو في اكناف الارض بكيفية تستوقف البصر ، وتحير الفكر ، بل هو كلما حزبته الاعداء ، وضايقته الأواء ، اربى في النماء ، كالشجر اذا شذب منه زاد ، او الأتي اذا شد طريقه غرق البلاد . وقد جزم العارفون وفي أولهم علماء الافرنج انه لا يمضي حرس من الدهر حتى يربو على جاريه المسيحي والوثني وعدد الأول الآن (٤٢٠) مليوناً والثاني (٥٠٠) مليون . وذلك لأن نسبة الزيادة فيه والزيادة فيهما مختلفة جداً حتى تكاد تكون كالفرق مابين الماشي والراكب الهملاج . كان سكان مصر سنة ١٨٨١ ستة ملايين فاصبحوا سنة ١٨٩١ نحو عشرة ملايين وكان مسلمو الهند سنة ١٨٩٢ (٥٧) مليوناً فصاروا سنة ١٩٠١ (٩٠) مليوناً وعلى هذا قس مسلمي الصين والسودان وغيرهم . وهذا شيء لا يوجد مثله في الأمم الأخرى . قال دي مولان : يتضاعف عدد سكان فرنسا في ٣٣٤ عاماً وسكان المانيا

(١) المنار : يراجع القراء مقالة (الجنسية والدين الاسلامي) في المجلد الثاني من المنار (ص ٣٢١) ومنها يعلم أن الاسلام هو الذي جاء بجمع البشر كلهم فهم يسعون اليه ولا يعلمون

في ٩٨ عاماً وانكلترا في ٦٣ عاماً والنمسا في ٦٢ عاماً

والاسباب في انتشار الاسلام وازدياده في كل صقع وقطر من أحشاء افريقية الى ميطان الصين الى جزر المحيط كثيرة نذكر بعضها فنقول

(السبب الاول) — سلامة العقيدة الاسلامية وسهولتها . قلت مرة للسيد جمال الدين الافغاني ماهو دين المستقبل؟ فقال لي هذه الآية من كتاب الله : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وقال بوكلر في مؤلفه عن الاسلام : « هكذا جذب الاسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من اعلاء شأن النفس بتصوُّر الذات الالهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث اباح للناس شيئا مما يشتهون . واعظم عامل في انتشار الاسلام خصوصاً عند الأمم الزنجية (السود) بساطة مذهبه وسذاجة تعاليمه وهو سبب موجود في القرآن نفسه فهو بذلك يلائم الطباع . دين لا اسرار فيه وكلمته (اي كلمة الشهادة) يتلفظ بها عند الاحتضار باشارة تدل عليها كرفع السبابة الى السماء اشارة الى وحدانية الله تعالى فكلما وجد الرجل الجاهلي امامه دينين متحدين في حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح — وهما الاسلام ودين عيسى — تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئاً على تينك الحقيقتين ويعتنق الاسلام بلا محالة وهي قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار وكانت معروفة عند أهل القرن السابع عشر لذلك تقرأ في كتاب القس (ماراشي) الذي سماه (الرد على القرآن) : « ولا يغيب عن ذهن القارئ ان تلك الطائفة . . . لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحي من الامور الظاهرة الوضوح القريبة التصديق مضافاً اليه ما يوافق نظام الكون وقانون النشأة الدنيوية فقد أبعد عنه احاجي الانجيل التي نحالها في أول الامر غير صحيحة لا تدركها العقول كما انه جرّد تعاليمه من كل قاعدة يشدُّ بها الخناق على البشر مما جاء في ذلك الكتاب وبهذه الواسطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحسّ كل واحد منا بانهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح وهما عقبة الروح وعقبة الجسم وهذا هو السبب في أن الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه يتلفظون عنه بالاسلام دون الديانة المسيحية » اهـ

وقال (اسحق طيلر) : « ليس أمر المسيحية واقفاً عند العجز عن إحداث

مواطن جديدة لأقدامها فقط ولكن المقام الذي هي فيه قد تعجز عن حفظه أيضاً. أن دين الاسلام قد انتشر آنفاً من مراكش الى جاوا ومن زنجبار الى الصين وهو الآن ينتشر في افريقية بسرعة لايأتي عليها الوصف وانا نرى الاسلام أوفق مايكون لتهذيب الأمم المتوحشة وترقيتها. أما الديانة المسيحية فلا تناطها عقولهم وبذا تدفع الاسلام المدنيّة أكثر مما تفعلها المسيحية. اذا دخلت الديانة المحمدية في قبيلة زنجية محت عبادة الأوثان وأبطلت أكل لحوم البشر ووأد الأطفال وأنشأت فيهم النظافة وعزة النفس والوقار وكرم السجايا فيصير قرى الضيف بمنزلة الفريضة الشرعية ويندر السكر والقمار والمراقص الحزبة وتعد العفة في الأناث من خلائق التقوى ويفشو التناصح بالاحسان والأخوة بالوجدان » (*)

(السبب الثاني لانتشار الاسلام) — موافقة أحكامه للفطرة الانسانية وابتنائها على الحكمة العقلية. قال (لوشاتليه) في كتابه المسمى (الاسلام في القرن التاسع عشر): « إن نمو الاسلام في الهند أمر لاينكر وسببه في الغالب حكم المساواة بين الناس الذي سنته الشريعة الاسلامية وذلك ان أهل الهند بحسب مذاهبهم القديمة ينقسمون الى طوائف لاينبغي لطائفة منها أن ترقى الى الطائفة التي فوقها فمن ولد منهم في طائفة دنيا لايجد له مخلصاً الارتقاء الى العلاء والخلوص من قيد الطائفة الا اعتناق الاسلام » وقال (لودوفيق دوقتناسون) في كتابه المسمى (النصارى والاسلام): « لايصل أهل الهند الى أن تكون لهم حكومة وطنية مستقلة الا اذا ذهب من بينهم التخالف في المذاهب والطوائف والاجناس ولا يكون ذلك الا اذا ساد فيهم الاسلام الذي يبيد جميع هذه الفروق ويقيم اركان المساواة والإخاء والحرية التي هي من قواعد الديانة الاسلامية »(١)

(السبب الثالث) — وهو أهم الأسباب حذق دعاة الاسلام وهم الصوفية. الصوفية جمعية في الأمة الاسلامية مرتبة النظام، منظمة الهندام، يبلغ عددها مائة مليون من النفوس فهي أكبر جمعية في الدنيا لا يضارعها البوكسر في الصين ولا الطوائف الدينية في

(*) تراجع مقالات اسحق طيلر وخطبه في المنار (٨) إن من أحداث السياسة في مصر من يحاول إبطال هذه المزايا الاسلامية بفمه وقلمه لغواً بالوطنية ويزعم مع ذلك انه يخدم مصر والاسلام !!!

أوربا وغيرها وقد قامت هذه الجمعية بالدعوة الاسلامية مقاما عجيباً (١) . قال بعضهم : « ان العالم الاسلامي وقف عن التقدم والتقلب أمام الدول الأوربية من مدة مديدة فاستطالت هذه الدول على الممالك الاسلامية وغلب الكثير منها بالقوة

(١) للصوفية (علم وعمل) أما العلم فهو العقائد والقواعد والاحكام المعروفة في كتب التصوف كالفتوحات والفصوص ونحوهما وأما العمل فهو ارشاد المسلمين ودعوة غير المسلمين الى الاسلام .

وانا نرى في هذه الايام من بعض متهوري الكتاب انكاراً وتثريباً على عقائد الصوفية وطلبا لتلاشي هذه الجمعية من بين المسلمين بسبب ذلك قال بعضهم : « ان هذا المذهب دخل الى الاسلام من القرن الثاني مع ما دخله من المذاهب اذ ذاك وانما نقل اليه من الفرس بدليل ان مشائخه الاولين كلهم أعاجم كالجنيد النهاوندي وأبو يزيد البسطامي وابراهيم ابن أدهم البلخي وبشر الحافي المروزي وسهل التستري الخ وبدليل انهم جعلوا سند الطريق الى علي رضي الله عنه دون غيره ولا يفعل ذلك الا الفرس الذين هم شيعته . وبدليل انه كان مدوناً في كتب الفرس واشعارها قبل الاسلام وقد نقله الفرس عن اليونان اذ كان عندهم مذهباً للحكماء الاشراقيين . وأخذه اليونان من الهنود الاقدمين اما بواسطة فتوح الاسكندر أو قبلها. قال ابو الريحان البيروني في كتاب الهند عند ذكر اعتقاد الهنود في الموجودات العقلية والحسية مانصه : (ان قدماء اليونانيين قبل ظهور الحكمة فيهم بالسبعة المسمين أساطين الحكمة وتهذب الفلسفة عندهم كانوا على مثل مقالة الهند وكان فيهم من يرى أن الاشياء كلها شيء واحد (وحدة الوجود) ثم من قائل في ذلك بالكمون ومن قائل بالقوة وان الانسان مثلا لم ينفصل عن الحجر والجماد الا بالقرب من العلة الاولى بالرتبة والا فهو هو ومنهم من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها اليها وان ماهو مفتقر في الوجود الى غيره فوجوده كالخيال غير حق والحق هو الواحد الأول فقط . وكانت هذه الآراء آراء (السوفية) أي الحكماء فان سوف باليونانية معناها الحكمة وبها سمي الفيلسوف أي محب الحكمة ولما ذهب في الاسلام قوم الى قريب من رأيهم سُمُّوا باسمهم ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم بالتوكل الى الصُّفَّة وأنهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وصيره بعضهم من الصوف وعدل أبو الفتح البستي عن ذلك أحسن عدول في قوله :

العقلية والمادية ولكن الذي أعجزها وضاعت معه قوتها وحيلها هم الصوفية . فالصوفية هم في الحقيقة القوة الدالة على الحيوية والنماء في العالم الاسلامي فتراهم في افريقية

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدما وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حق لقب الصوفي

وكذلك ذهبوا الى أن الموجود شيء واحد وان العلة الأولى تتراءى فيه بصور مختلفة وتحل قوتها في أبهاضه بأحوال متباينة توجب التغاير مع الاتحاد (الحلول والاتحاد) وكان فيهم من يقول ان المتصرف بكليته الى العلة الأولى متشبهاً بها على غاية امكانه يتحد بها عند ترك الوسائط وخلف العلائق والعوائق (الرياضة والتجرد) .

وكانوا يرون في الأنفس والأرواح أنها قائمة بذواتها قبل التجسد بالابدان معدودة مجندة تتعارف وتتناكر وأنها تكتسب في الأجساد بالضرورة ما يحصل لها به بعد مفارقة الابدان الاقتدار على تصاريف العالم ولذلك سموها آلهة وبنوا الهياكل بأسمائها وقربوا القرابين لها كما يقول جالينوس في كتاب الحث على تعلم الصناعات (أصحاب الكرامات) اه كلام البيروني

قالوا والوصول الى المعرفة عند الصوفية ليس من طريق النظر والتجربة بل من طريق الرياضة وكل ما يفعله الصوفية الآن من الاهتزاز الشديد في الذكر ونحوه هو لتخليص النفس من الحس حتى تتجلى لها المعرفة بقدر ذلك ولا شك ان هذه جميعها عقائد وقواعد يجب الغاؤها لأنه لم يجيء بها كتاب ولا سنة . اه

أقول هذا تهور وخطل وبعد عن الصواب اذ كيف يجوز لمسلم أن يطالب ايقاف الحركة التي يعترف الافرنج أنفسهم بأنها الحركة الحية الوحيدة الباقية الآن في الاسلام والتي فتحت للاسلام الآن قدر ما فتحته سيوف الفاتحين الأولين أما الطريقة لاصلاح حال الصوفية ونفي الضار عنها وإبقاء النافع فيها فهي ان تجعل (العلم) عندهم هو علم الشرع الاسلامي بلا زيادة ولا نقص و (العمل) يبقى موضوعه على ما هو عليه فيكون عبارة عن ارشاد المسلمين الى الشريعة المطهرة ودعوة غير المسلم الى الاسلام

وبهذا يكون التصوف عبارة عن (علم بالشرع وعمل به) ويقوم مشايخ الصوفية اذن بركني التعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين حث عليهما الكتاب الكريم قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وقال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا

وفي الصين والهند وأواسط آسيا بل في جزائر المحيط يدعون الى الاسلام ويدخلون الافواج فيه كل يوم حتى ان الخطوط التي ترسم في افريقية لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء تنقل متقدمة الى الجنوب في كل عام من أثر فتوحات مشايخ الطرق في مجاهل افريقية . وما دخل الفرنسيس قرية في الكنغو الا وجدوا الصوفية قد سبقوهم اليها وزرعوا بغض الناس لهم فيها . ومن اطلع على المؤلفات الكثيرة الأوربية التي تؤلف في هذه السنين في اوربا عن أحوال الصوفية وتاريخ الطرق وكيفية سير أهلها في الدعوة علم ان مسألة الصوفية هي المسألة الشاغلة للباحثين عن حالة الاسلام الماضية والمستقبلة

وقد بلغ من العناية بهم ان والي الجزائر كلف جمعية برئاسة (اوكتاف دوبون) عن البحث في احوال الصوفية ففعلت وطبعت اعمالها في مؤلف ضخم ورسمت خريطة عامة يتبين منها ما يوجد من الطرق والطوائف في كل بلد من بلاد الاسلام بعلامات مخصوصة حتى تستقصى منها حركاتها وتنقلاتها في الأقاليم اه

وقال دي كاسترى : « قد فطن المسلمون الى ما احدق بهم من الاخطار وارادوا تمكين الجامعة وتوحيد الروابط بينهم وهي عند المسلمين اشد قوة منها لدى غيرهم من الأمم التي تدين بدين واحد لأن القرآن شريعة دينية وقانون مدني وسياسي ومن ذلك وجدت حركة في النفوس غايتها مقاومة النصرانية بجميع الوسائل الممكنة وعلى الخصوص مغالبة التمدن الجديد باسم الايمان . قال القائد (رين) وتأتي قوة هذه الحركة الاسلامية من تعدد الطرق الصوفية التي وجدت من اول هذا القرن وعظم شأنها في جميع الأنحاء وصار لها تأثير شديد في قلوب الناس ولهم رسل ومريدون يطوفون البلاد الاسلامية التي لاحد لها وغير الاسلامية كمبشرين او مستعطين او قاصدين للحج ويصلون بهذه الكيفية بين الأقطار من مكة الى جنوب الى القسطنطينية وبغداد الى فاس وتنبكتو الى القاهرة الى الخرطوم الى زنجبار ثم كلكتا وجاوه ومنهم التاجر والمنجم وطالب العلم والشحاذ والمجذوب وكلهم يلاقون صدوراً رحبة ومنزلة كريمة بين المؤمنين » اه

قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) . وتكون جمعية الصوفية في الدنيا أشبه بمدرسة عظمى فيها المشايخ والخلفاء أساتذة والمريدون من الكافة تلامذة قد وضعوا أنفسهم تحت التعلم ومراقبة العمل به مدى العمر اه مؤلف الرسالة

وقال (كونتانسون): نرى حركات كثيرة واعمالا كبيرة يقوم بها المهديون او الامراء في العالم الاسلامي ثم تزول كأن لم تكن . اما العمل الثابت الدائم فيه فهو عمل الصوفية فالفضل لهم في انتشار الاسلام شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً. وقال (شاتليه) بعد ان اطال في وصف انتشار الاسلام في الدنيا وعزاه لمساعي مشائخ الطريق: « والخلاصة ان الاسلام مدين بكل فتوحاته السامية وانتشاره في الاقطار لجماعة الصوفية . فمشائخ الطريق هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الاسلام الحية . ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على المصالح الأوربية »

(السبب الرابع) تعدد الزوجات وهو الامر الذي به يتفوق للمسلم الواحد أن ينسل خمسمائة نسمة وفي الحديث « تناكحوا تكاثروا فاني مباه بكم الامم يوم القيامة » (١) وقال تعالى في حكاية دعاء ابراهيم واسماعيل : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ)

قال دي كاسنري أيضاً: « ومن الوسائل الناجحة في المسلمين لانتشار الاسلام الزواج فان سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية ولا تمكث النساء وأولادهن حتى يصير الكل من أقوى الاسباب لانتشار الدين الاسلامي وقد أشار موسيو (رونان) الى ذلك في بعض كتبه حيث يقول (من الصعب ان يصم المرء أذنه اذا تقدمت اليه النساء والاطفال ومد كل يديه اليه وطلب منه ان اعتقد بمن نعتقد) على ان الزواج هو السبب في وجود انصار الاسلام الاولين »

(السبب الخامس) — بغض الامم الوثنية للمسيحيين وميلهم الى المسلمين بالفطرة قال (كونتانسون): ان مما اعلى كعب الاسلامية على النصرانية في الصين عناية ملوك الصين بالمسلمين من قديم فهم يمنحونهم على الدوام من المراتب والألقاب والمنح مايمنعونه النصارى. وقال بعض الكتاب : « قد ملأ الأوربيون بلاد الصين بجماهير المرسلين من كل ملة ونحلة وسهلوا لهم سبل التملك ووعدوهم بالمساعدة فأدخل هؤلاء المرسلون بعضاً من أهل الصين في دينهم بعد ما وعدوهم بالحماية الاجنبية من كل سلطة للقانون فجرأهم ذلك على ارتكاب ما تحرمه القوانين والاعتداء على أهل البلاد فنجم عن هذا معظم الاسباب التي أوجبت كره أهل الصين للمسيحيين كرها يشبه التعصب

(١) المنار : رواه عبد الرازق في مصنفه من حديث سعيد بن أبي هلال مرسلا بسند ضعيف. ولكن ورد بمعناه في مكاثرة النبي الأمم والأنبياء بأمته مايقويه

وبالجملة إن الأوروبيين القائلين بالمساواة يعاملون اللون الابيض من بني الانسان معاملة الاخ لأخيه واللون الاصفر معاملة الرجل لخادمه واللون الاسمر معاملة السيد لعبده ويطلقون الرصاصة على ذي اللون الاسود كما يطلقونها على الوحش الضاري فالانسان كلما مال لونه الى السواد كان نصيبه من هؤلاء الخذلان وفاحش الامتهان. ولهذا كان كره الأمم الشرقية لهم متكاثراً وحقدهم عليهم عظيما.

وقال (فيلكس مارتان) في كتابه عن اليابان مانصه: «وقد استأصل أهل اليابان جميع النصارى فلم يبقوا مبشراً الا شردوه ولا قسيسا الا قتلوه وكان قد تنصر من أهل اليابان ٣٧ الف نفس فاعدموهم قاطبة». وقال أيضاً: «ان الصبغة التي تقضي كل مشكلة أو ثورة في اليابان الآن لتجعلها مقبولة من الناس هي الحركة ضد الافرنج».

وقال أيضاً: «كل من زار اليابان من الاوروبيين يعلمون بان الحالة اليوم كما كانت في الازمنة السابقة وان الافرنج في اليابان كأنهم في دار حرب أو بلد عدو وانه لو كشف الغطاء عن اليابان الحالي وزخرفه لوجد انه ذلك (الساموري) القديم الذي يغلي دمه بعداوة الافرنج عداوة وراثية فيهم لافرق فيها بين الكبير والصغير والامير والحقير».

وقال هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً في مقالته عن الاسلام: «وقد انبعثت شعبة منه في بلاد الصين فانتشر فيها انتشاراً هائلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون(١) فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكيامونى) وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة الا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق. فهو الدين الوحيد الذي أمكن اعتناق الناس له زمراً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه. ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا كما ان أمثالهم في القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الاسلامي ثم هو — أي هذا الدين — قائم الدعائم ثابت الاركان في اوربا عينها — أعني في الاستانة — حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية عن بعضها شطرين».

---

(١) المنار: جاء القاهرة في هذه الأيام تاجر بلوجي مسلم ذهب الى الصين مراراً فأكد القول بان مسلمي الصين يبلغون ٨٠ مليوناً وان علماءهم يهزأون بقول الاوربيين أنهم ٤٠ مليونا

وقال آخر : ان للاسلام في الصين أربعين مليوناً من النفوس وان للمسلمين عند أهل الصين منزلة علية . قال موسيو (وازيليف) وهو من الذين اشتغلوا بالاسلام في تلك النواحي : ان مصيره القيام مقام مذهب (ساكيامونى) (١) وان لمسلمي المملكة السماوية اعتقاداً جازماً بأن الاسلام لابد أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة وهي مسألة من أهم المسائل اذ الصين آهلة بثلث العالم او تزيد فلو صاروا كلهم مسلمين لأوجب ذلك تغييراً عظيماً في حالة تلك البلاد باجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق الى المحيط الأكبر الهادي ويخشى على الدين المسيحي مرة أخرى ومعلوم ان أمة الصين أمة عاملة وان هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الاسلامي ذو البأس القوي لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها (٢) وقال موسيو (مونطيط) لقد صار من المحقق ان الاسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية »

وقال شاتليه (ان من تأمل حال الاسلام في القطرين اللذين هما آهل أقطار آسيا بل أقطار العالم — الهند والصين — يجد أن الاسلام وحده يتقدم وينمو على حين يرى غيره من الديانات القديمة تتداعى وتضعف والمسيحية لاتكاد تثبت)

وقال آخر بعد ان وصف فتوح الاسلام في الديانات الأخرى وعجز الآخرين عن الفتوح فيه : (ولم يرالمبشرون في طريقهم بلداً قامت في وجههم سدوده وأقفلت دونهم أبوابه مثل بلاد الاسلام ومن الصعب أن يكيف الانسان حالة مسلم يريد أحد المسيحيين أن ينصره حتى لو شبهناه بمسيحي مستنير يريد وثني أن يميل به الى عبادة الاصنام لكان التشبيه ناقصاً)

وقد ملأت هذه الفتوحات الاسلامية قلوب الامم الأخرى وبلبلت بلبالهم حتى عدوها من الخوارق وبنوا أسبابها على ماوراء الطبيعة

---

(١) هو احد ملوك الصين تخلى عن الناس فى التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها وسمى نفسه (بودا) ومعناه العالم او المتنور ووضع المذهب الذى اتخذته الصين والهند ديناً وكان ظهوره فى القرن الحادى عشر قبل المسيح وقيل فى القرن السابع وهو الأرجح (٢) راجع كتاب موسيو دابرى المسمى الديانة المحمدية فى الصين وتركستان الشرقية المطبوع فى باريس سنة ١٨٧٨ اه من هامش كتاب الاسلام لدي كاترى

قال دي كاسـتري : « هذه هي أهمّ الاسباب في انتشار الاسـلام ولست أدري ان كانت تكفي لإدراك سر هذا الدين في انتشاره أو انه يجب البحث معها عن أسباب سماوية غـير ان الاسـلام خرج من ذرية اسماعيـل وسرى في الارض كما خرجت المسيحية من ذرية اسحق وقد بارك الله في أبناء الخادمة كما بارك في أبناء السيدة

«ونحن نعلم ان يهوذا قال لابراهيم عن اسماعيل انه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيراً وكرّر له ذلك بقوله انه سيبارك له في ابن الخادمة فتخرج من صلبه أمة كبرى لكونه من أولادك وأعاد يهوذا هذه البشرى مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذي نجا في الصحراء حيث رمي ليموت عطشاً وقصة ظهور الملك الى هاجر من أجمل الروايات ووصف بادية الظماء وهلع الام على ولدها من ألطف مايقال (نضب الماء في الزق ورمت هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلاً ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل وقالت لست أصبر ان أرى ابني يموت ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل سبقها الى السماء فناجاها الملك من قبل الله : مالك ياهاجر لاتخافي فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذي وضعتيه فيه فقومي وساعديه على القيام وليشتد ساعدك على حمله فيكون من ذريته أمة كبرى)

« ولقد ارتعشت يدي عندما مددتها لأزيل الغطاء عن الكتاب المقدس كي أنقل الآيات التي سطّرتها ولولا ماقاله الاب بروغلي من أن تقدم الاسلام أمر مندرج تحت مابشر به أبو المؤمنين لما تجرأت ان أطبق تلك الآيات على الاسلام ولا ذهبت الى أن في انتشار هذا الدين سراً من الاسرار الربانية » اهـ

هذا ما أردنا بيانه في هذا الفصل ومنه يعلم أن حظ الاسلام من الارض أوفر حظ وان ارضه لا يمكن أن ينتزعها منه غيره وان عدد المسلمين كثير وان صفاتهم الفطرية قويمة، وجامعتهم الدينية عظيمة، وانهم يزيدون زيادة تستوقف الابصار، وتحير الافكار، وانه لايتسنّى لغيرهم أن يجاريهم في هذا المضمار، واذا كان الامر كذلك كان رأس مال الاسلام من الاصلين الطبيعيين الضروريين لمستقبل الامم كبيرا في الحال، أكبر من غيره في الاستقبال، ولاينقصه الا الامور الكسبية والاسباب الوضعية التي لابد أن تدفعه طبيعة العمران لتحصيلها شاء أو أبى، فيصل الى ما قدره له الله من السعادة والعلاء والمجادة ولله در القائل:

لي في ضمير الدهر سر كامن لابد أن تستلّه الاقدار

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في أسباب الانحطاط)

« الجهل »

اختلف العلماء وافترق العقلاء في أسباب انحطاط الأمم وارتقائها وانقسموا في ذلك الى فريقين وهما

(الفريق الاول) — يرى هذا الفريق ان الامم في ارتفاعها وانخفاضها أشبه بالانسان في أدوار عمره لا تكبره الإرادة ولا تضره الصنعة فهو اذا جاء زمن المشي مشى وحده واذا جاء زمن النطق نطق كذلك. وان الجمعيات الإنسانية مسيرة بناموس طبيعي كالناموس الذي يسير الكواكب في أفلاكها . وان الجمعية الحالية هي نتيجة ضرورية لماض طويل الأمد . وأنها حاملة معها جميع بذور التحولات والأطوار التي لابد لها من المرور عليها في رقيها وانحطاطها . وانه بذلك تكون الجمعية كالشخص لايبلغ سنا ما إلا بمر بالادوار التي تفصله عنه وان تأثير الانسان في هذا السير هو كتأثير الطبيب في سير المرض أي ضعيف لايذكر .

[الفريق الثاني] — يرى هذا الفريق ان الأمم مثل الشمعة المذابة تضعها في أي شكل أردت . وتجعلها في أية صورة صورت ، وأن الإرادة تفعل في كيانها فعل الاكسير الذي يحول التراب تبراً . ورجال هذا الفريق هم أساطين الحكمة مثل (أفلاطون) و (أرسطو) و (ليبنيز) و(ليكورغ) . ولا حاجة في اطالة الكلام لترجيح الفريق الثاني في هذا المقام فان البيان هي البرهان الذي لايختلف فيه اثنان.

***

ثبت عند كبار الحكماء أن الأمم يمكن رفعها وخفضها بالإرادة . أما الآلة الرافعة أو الخافضة لها فقد اتفقوا على انها العلم أو الجهل ،قال ليبنيز الحكيم : « لو كان أمر التعليم موكولا الي لغيرت وجه أوربا في أقل من قرن » وقال أيضاً : لو أجلنا النظر لألفينا ان تسعين في المائة من الناس هم فضلاء أو أرذلون نافعون أو مضرون بالتعليم الذي تعلموه وان كل مايوجد من فرق بينهم فسببه ذلك التعليم. وقال (ديدرو) علة العلل في ارتقاء أو انحطاط الأمم هو العلم أو الجهل وما عدا ذلك فاسباب ثانوية وعلل جزئية ترجع الى تلك العلة الاصلية

هذا وقد يدلنا النظر في حالة العمران ان العلم هو الملة التي تقوى بها أمة على أمة والجهل هو سبب انحطاط فريق عن فريق وبيانه أن هذه الأرض وان تنوعت أقاليمها أجزاءها في المواضعة واختلفت الوان بقاعها في الخلق فهي بسيط واحد فيه العامر والغامر والأمم فيه كأمة واحدة فيها القوي والضعيف . وقد أوجدت المصادفة بعض هؤلاء في حيز عامر مفعم بالنعم والبعض في حيز غامر مملوء بالنقم وجبل الانسان على حب الأثرة لنفسه ولو هلك في ذلك أهل الأرض جميعاً . قال سهل بن هارون البخيل : « ليس لي من مالي الا ما منعته الناس ولو أمكنهم لقصروا بقي حجرا حجرا » فوقع بين القوم بسبب ذلك ما يسمى بتنازع الحياة وهو في الواقع قتال بلا سبب . حيث كل يطلب الطيبات لنفسه ويحرص على نزع ذلك من الآخر بقوة بأسه . ومنعة يعيش فيها الجليد ويهلك الرعديد . ويحيى القوي ويموت الضعيف . فلهذا احتاج كل واحد أن يكون أقوى من قرنه فتراجموا في الأزمنة الأولى الى القوة الجسمية حتى اذا سما العقل واستنبط من الأساليب ما جلس به قوة الجسم تراجعوا الى القوة العلمية ولهذا قال بعض السياسيين : « الجاهل الآن كالأعزل في القرون الوسطى » فمن كان أكثر علماً كان أكثر قوة فكان له الغلب والفلج على خصمه . وقد يكون هذا التنازع جهرياً وهو معروف في غالب الأمم بعضها على البعض بقود الآلات المستنبطة والمدد المبتدعة وقد يكون خفياً وهو النظر في سائر وسائل الحياة . فالأمم في الحقيقة جيوش متلاحمة ومقاتلة متحاملة . كما قال المتنبي :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا

فالجنود تقاتل الجنود والتجار والصناع الصناع والزراع الزراع وهكذا . وكما ان الجندي اذا غالب الجندي وكان سلاح أحدهما المكسم وسلاح الآخر الرمح غلب الاول لا محالة فكذلك الحال في سائر الأنواع الأخرى . وبقدر ما يكون في جميع طبقات الأمة من سعة العلم يكون غلب مجموعها على غيرها ولا يمكن أن يحط فرد واحد منها الا أثر ذلك في كونها كما اذا وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتها وأمالتها حقيقة وان لم تدرك ذلك مشاعرنا .

ومن هذا يعلم ان جميع أحوال الأمة متوقفة على حالة أشخاصها من الجهل والعلم فان صلحت الأشخاص صلحت الأحوال والعكس بالعكس . وبهذا جاء القرآن الكريم قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »

وقال تعالى : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » وقال تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » وقال جلّ شأنه : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يُوَلَّى عليكم » (١) وفي معناه قول الحكيم (الأمة تعطى الحكومة التي تستحقها) وقال فولتير : « الظلم الواقع على الأمة عقاب لها على جهلها » .

ويعلم مما تقدم أيضاً ان الذين يعددون الأسباب الكثيرة في انحطاط الأمم او ارتقاءها إنما يذكرون أسباباً ثانوية لعلة أولى هي علة العلل وهي الجهل أو العلم . فمن جعل السبب محصوراً في الحكومة مثلا قلنا له ان الحكومة لا تكون الا على نسبة استعداد الأمة وما شذّ عن ذلك لا حكم له بل لا فائدة فيه فقد رأينا ان المصادفة قد توجد حكومة فوق قدر الأمة فلا تلبث ان تتبدل بموت القائم بها أو نحو ما لغرى تفسد كل ما أتت به الحكومة الأولى . وهكذا من جعل السبب في فشوّ الطرائق الفاسدة في الأمة أو المبادئ التي تزعم انها من الدين وليست منه نقول له ان السبب هو الجهل بالدين وهلمجرّا

***

ثم ان العلم له ميزان في الوجود وهما الأنبياء والحكماء أي الدين والحكمة فنأخذه من الدين أولا ثم ان أردنا التفصيل في الفروع أخذناه من الحكمة . قال ابن مسكويه : « ان تحصيل السعادة على الاطلاق يكون بالحكمة . وللحكمة جزآن نظري وعملي فبالنظري يمكن تحصيل الآراء الصحيحة وبالعملي يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الافعال الجميلة وبهذين الامرين بعث الله الانبياء صلوات الله عليهم ليحملوا الناس عليها وهم أطباء النفوس يعالجونها من أسقام الجهالة بالادب الحق لما يأخذونهم به من الاداب الصحيحة والاعمال النافعة ويطالبونهم بالاستسلام لهم بعد اقامة الحجة عليهم بالمعجزات فمن تبعهم ولزم محجتهم وقف على الصراط المستقيم . ومن خالفهم تردّى في سواء الجحيم . فأما من أحب أن يعلم صحة ما دعوا اليه بالنظر الصحيح فانه يجد ذلك من جهة الحكماء » ولا يقول قائل انه يوجد تباين بين الدين والعلم يتنافيان به فان ذلك غير صحيح وانما جاء هم من أنهم حملوا من الدين ما ليس منه أو اخطأوا مقاصده ومعناه . قال شيخ الفلاسفة في هذا الزمان هربرت سبنسر في كتابه (التربية والتعليم) ما نصه :

(١) المنار : رواه الديلمي عن أبي بكرة والبيهقي عن أبي اسحق السبيعي مرسلا

« العلم عدو الاوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ولكنه ليس بعدو للدين الحق الذي كثيراً ما تحاول هذه الاوهام ستره عن الابصار . نعم أنه يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ولكن هذا أيضاً من قبيل العلم الذي اكثره وهم اذ العلم الحقيقي الذي يغوص وراء حقائق الاشياء لا يناقض الدين كما قدمنا »

وقال (باكون) امام الفلسفة الحديثة : « القليل من العلم يبعد من الله والكثير منه يقرب منه » وقال (هكسلي) الحكيم الكبير : « الدين والعلم كتوأمين متلاصقين فصلهما يؤدي الى موتهما . فان العلم يموت متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً . وأهم آثار الفلاسفة انجبتها أفكارهم بسائق ديني في الحقيقة »

ولو تتبعنا جميع رؤساء الحكماء وأساطين الفلسفة العقلاء من سقراط وأرسطو وافلاطون الى كانت وديكارت وليبنز وأمثالهم لوجدناهم من أهل الدين وان لم يتسموا بهذا لانهم يعتقدون بما جاء به الدين ويخلقون بالحكمة التي أمر بها أن تكون . قال (كارليل) الفيلسوف في كتابه (الهيرو) : « قال (جوتي) اكبر شعراء الجرمان وقد وصف له الاسلام : ان كان هذا هو الاسلام افلا نكون جميعا عائشين فيه ؟ (ثم قال كارليل) نعم ان كل واحد منا عنده حظ من الفضيلة والكمال في الحياة عائش فيه » اه

ولا فرق مثلا بين قول سقراط : « يجب ان تعرفوا ان إلهكم واحد » وقول المسيح في الانجيل : « وهذه هي الحياة الابدية أن يعرفوا انك أنت وحدك الاله الحق » وقول الله سبحانه وتعالى « قل هو الله أحد »

وكل ما أدخل على الدين من تحريف الاصول الحقيقية والقواعد العامة التي فيه فانما جاء من فساد عرض أو عرام طرأ وهو منه براء . وهذه الاصول العامة التي هي عهد السعادة كما لا يختلف فيها الدين عن الحكمة لا يتباين فيها دين ودين بل الاديان فيها سواء . قال الله تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » وقال تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »

***

اذا توضح ذلك وانه لا خلاف بين العلم والدين فلنبين هنا ماهية كل منهما ليس العلم هو هذه الابواب المحفوظة فقط التي يتسمى محصلوها بالعلماء عند المسلمين

الآن بل هو أوسع من ذلك رحاباً وأفسح مجالا . هو معرفة حقائق الوجود جميعاً . وينقسم الى حكمة نظرية وحكمة عملية . وتنقسم الحكمة النظرية الى ثلاثة أقسام وهي (قسم العلم الإلهي) وهو مالا يفتقر في الوجود الخارجي والتعقل الى المادة و(القسم الرياضي) وهو علم بأحوال ما يفتقر اليها في الوجود الخارجي دون التعقل و(القسم الطبيعي) وهو علم ما يفتقر اليها في الوجود الخارجي والتعقل . وتنقسم الحكمة العملية الى ثلاثة أقسام أيضاً (قسم الاخلاق) وهو علم بمصالح الشخص و (قسم تدبير المنزل) وهو علم بمصالح العائلة و (قسم السياسة) وهو علم بمصالح الامة ويدخل تحت كل قسم من هذه الاقسام جملة علوم كالرياضي يدخل تحته علم الحساب والهندسة والجبر والهيئة وكالطبيعي يدخل تحته الكيمياء والطب والنبات والحيوان والجغرافية والفلاحة الى غير ذلك بل كل واحد من هذه العلوم يدخل تحته علوم أخرى كالطب يدخل تحته التشريح والجراحة والكحالة وهكذا الى ما شاء الله . ولو أحصيت العلوم التي تقوم بها أعمال المجتمع الانساني الآن لربت على ألف علم

وكل علم من هذه العلوم له وظيفة لا يقوم بها غيره فمثلها في جسم الاجتماع كمثل الاعضاء في الجسم لا تغنى فيه العين عن الاذن ولا اليد عن القدم وهكذا . فالعلم الالهي أو الفلسفة الاولى هو أس العلوم في الحقيقة . سأل (رينان) السيد جمال الدين عن سبب عقم المدارس في الشرق سواء فيها القديمة والحديثة فقال له السيد ان سببه فقد الفلسفة الاولى منها اذ هي للعلوم كالسلك للعقد او القاعدة للمسائل فان فقد السلك تبدد العقد أو عدمت القاعدة تناثرت المسائل

وأما العلم الطبيعي والرياضي فهما باب الارتزاق وسلم المدنية وعنهما تنشأ [illegible] نراه في الأمم المرتقية الآن من الحركة والعمران

وأما علم الاخلاق فهو طب النفس . ومن العجيب اننا نرى الانسان اذا اصيب دمل في جسمه اسرع الى العلاج والطبيب وفي نفسه عشرون دملا لا يلتفت اليها وان انهكته في الحقيقة آلامها ولا سبب لهذا الا فقدان هذا الطب من بين المسلمين الآن مع نموه عند غيرهم من الامم وحسبك انه الف في مرض الارادة وحده عندهم كتب ذات اسفار .

ويجب ان يكون هذا العلم ملكة في النفس كملكة النحو في اللسان حتى تنطبق أحوال المرء على قواعده بلا تكلف فتصير الفضائل — كالوقوف عند الاعتدال في الاعمال والحق في الاقوال والاعتماد على النفس ونحو ذلك جميعه — خلقا له وسجية طبيعية

واما تدبير المنزل فهو من أهم الأمور الضرورية لسعادة الأمة وذلك ان المنزل

هو المدرسة الاولى ويعده مدرسة التعليم ثم مدرسة الدنيا فان كان عمل الاولى مضاداً للثانية ضاعت النفس بينهما ضياع لب المأمور لآمرين مختلفين

وأما علم السياسة فهو طب الاجتماع الانساني وطالما أدّى الجهل به الى شقاء البشر قال لويون: إنك لا ترى أحداً يقرأ الفلك أو الحبر ثم يحاول حل مسائل فلكية أو معضلات جبرية ولا ترى أحداً كذلك لم يتعلم التشريح ثم يحاول ان يخيط عرقاً مقطوعاً مثلاً ولكن نرى كل يوم رجالاً لا يفقهون شيئاً من علم السياسة يسوسون الامم ويضعون القوانين ويسنون النواميس غافلين عن الاخطار والالزامات التي تنجم من عملهم هذا مع ان خطأ الجاهل بالطب يودي بشخص واحد وهذا الخطأ يودي بأمة . وعلى هذا النحو قس سائر العلوم والفنون

أما الدين فليس هو ايضاً ما يفهم الناس من أنه مجموع حركات بدنية فقط او تكليف أحاجي لا يصل اليها العقل بل هو العلم باقسامه الاانه أبعد غاية . ومقصده هو عين المقصد الذي وجد لاجله العلم اي ارشاد الخلق الى الحق ثم هدايتهم بقواعده الى كل ما فيه السعادة لهم الا ان الدين يمتاز على العلم بانه يجمع السعادتين سعادة الدنيا والآخرة وان العلم يرغّب في الفضيلة فقط وهو يقهر عليها قهراً ويرتب على ذلك ثواباً وعقاباً

ولتقريب فهم المقصود من الدين والانتفاع بما جاء به نفرض على وجه التمثيل أن الكتاب السماوي الكريم هو كتاب علم وحكمة ونقسمه في ذهننا الى الاقسام السابق ذكرها في تقسيم العلم . فنجد تحته قسم الإلهيات مفعما بما لا يصل البشر الى الاتيان بمثله ولا الوصول الى مثل تعبيره وتمثيله . قال سبنسر الحكيم في كتاب المبادئ الاولى : « لنعرف للدين الفضيلة الكبرى بأنه أول دليل على الله وانه لم يفتأ يعلن ذلك في كل زمان ومكان » . ثم اننا نجد الدين وان لم يتعرض لقسم الرياضيات والطبيعيات فقد حث عليها في جملة مباحث فيه من النظر في الاكوان وكذلك وضع العبادات التي تحيي التوحيد في النفوس . أما الاخلاق وتدبير المنزل والسياسة المدنية وما يتبع ذلك من الاحكام فقد بلغ فيها غاية ليس وراءها مطلع للناظر وكانت عمومياته هي الاصل الذي فرع عليه الحكماء جميع ما أتوا به في هذه الابواب . وأما ما يقوله السفهاء من عدم موافقة بعض احكام الدين لسير العمران فهو خطأ ووهم اذ نراهم قد قهروا الى الرجوع الى كثير منها بعد أن انكروها قروناً عديدة

***

واذ قد تبين أن الجهل هو سبب الانحطاط وان العلم هو سبب الارتفاع على الاطلاق فيهما فلم يبق خلاف في ان سبب انحطاط الأمم الاسلامية هو الجهل . ولو نظرنا نظرة واحدة في أحوال المسلمين لتبيّن لنا مقدار ذلك الجهل وآثاره السيئة فيهم

قلنا ان بابي العلم هما الدين والحكمة . أما الدين فلو حكمناه في نفوس أكثر المسلمين الآن وطبقناه على عقائدهم وأخلاقهم وأحكامهم لوجدنا لدى اكثرهم في محل كل عقيدة قرآنية أو خلق ديني عقيدة أخرى أو خلقاً آخر يكاد يضاد الاول على خط مستقيم . واذا كان الاول آلة للاصلاح كان الثاني علة الانحطاط . ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب اليه فان ذلك لا يهدي الى خير ولا يدفع عن شر وانما العمل والانتفاع بكل ماجاء فيه هو الذي يرقي صاحبه الى ذرى الكمال وذلك كالطب فإنه لا يكفي أن يعتقد الانسان انه نافع فيبرأ من مرضه وأوصابه وانما يحصل على ذلك باستعماله والائتمار باوامره والانتهاء عن نواهيه . ولذلك حرصت جميع الاديان على تبيان هذه الحقيقة للناس قال تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » وجاء في الإنجيل « وانه ليس الذين يقولون للمسيح ياسيدي ياسيدي يدخلون ملكوت الله بل الذين يعملون ارادة الله » ومهما قلبت بصرك لا تجد الدين في الغالب مستعملا فيما وضع له . فهو عند الخاصة موضوع مناقشات لفظية وصناعة فصاحة كلامية ومجال براعة في اختراع وجوه وتأويل مناحي وبعد عن مقاصد . وعند العامة دفتر تعاويذ ورقى وكتاب ترتيل وكلام يقال لكي لا يفهم حتى قال بعض الادباء : فات هؤلاء ان يفهموه الاحياء فهم يسمعونه الموتى في القبور « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »

وأما العلم فحالهم فيه كحالهم في الدين . فهم كل يوم يبعدون عنه ويقربون من نقيضه ولهذا تجد الكتاب عندهم كلما كان أقدم كان انفس وأجود بخلاف الأمم الحية فانه لا يقرأ الكتاب فيها اذا مضى عليه عشرون عاما

منذ كم سمعت أقلام المسلمين الاولين ترى العلم واقفاً بيننا لا يتحرك . أين الجماعات المشتغلة بالعلوم الالهية ؟ أين منشئو المذاهب والآراء ؟ أين المحامون عن العقائد ؟ أين المؤلفون في الرياضيات ؟ أين المخترعون لعلوم لم تكن كالجبر والكيمياء ؟ أين من نقل فلسفة اوربا كما نقل أولئك فلسفة اليونان ؟ أين من شرح كتب كانت وديكارت مثلما شرح ابن رشد كتب ارسطو وابن كمونه كتب افلاطون ؟ أين من جمع علوم

الاوائل في سفر شامل كما فعل الفارابي في كتاب التعليم الثاني ؟ أين من ألف فوق مائة مؤلف في الطب كابن سينا والرازي ؟ أين من سافر لجمع غريب النبات وتدوينه كما سافر ابن البيطار الى بلاد الاغارقة ؟ أين من جرب في الجراثة ودوّن كابي زكريا الاشبيلي الذي رقّت تجاربه زراعة الاندلس . أين من ساح آسيا وأفريقية والجزر واكتشف البقاع ووصف المواطن كالحسن بن محمد القرطبي المعروف بالاسد الافريقي والبيروني والشريف الادريسي . أين أنواع العلوم الكثيرة التي يتداولها المسلمون ويؤلفون فيها والتي حصرها صاحب كشف الظنون في زهاء مائتي علم ؟ أين من دوّن حوادث زمانه يوماً يوما وأخبار قومه خبرا خبراً باختلاف الروايات وتنوع الاسانيد . أين من وقف على حدود العلوم وزاد فيها على ما كان عند الامم . أين من طلب العلم للعلم وأراد به أن يعرف حقيقة يجهلها ولذة عقلية يحصلها . أكثر ما عند المسلمين الآن اختلاف في اعراب البسملة وبيان وجوه الصفة المشبهة وأمثالها وشيء من الفقه يعلمونه ولا يعملون به وما عدا ذلك فقشور من العلم في المدارس الحديثة المقصود منها صنع موظفين للحكومات أو اجراء لبعض المهن كالطب والحقوق ونحوها

هذه مصر وهي في مقدمة بلدان الاسلام عمرانا وحضارة ورفاهية وثروة تسعون في المائة من أهلها أميون ولا يوجد الا واحدة في المائتين من نسائها تقرأ الخط . فكيف حال المغرب والتركمان والعجم والسودان ؟ حيثما سرت واين اتجهت وقعت عينك على اناسيّ لو جردتهم في الخيال من ألقابهم وأموالهم وحليهم لم يبق في يدك شيء . قال المعري :

لو يعرف الانسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده
لولا سجاياه وأخلاقه ... لكان كالمعدوم في وجده

الناس أجمع في حركة وعمل والمسلمون في سكون وسكوت كما قال تعالى . وحين تضمون نيابكم من الظهيرة . ولله در أبو تمام حيث يقول :

أفكر في احلامكم اين عُزّبت ... فيصرعني طورا وأصرعه الفكر
اذا الوحي فيكم لم يضركم فانني ... زعيم لكم ان لا يضوركم الشعر

الفصل الثالث في وسائل الارتفاع

(العلم)

اذا كان الجهل سبب الانحطاط كان العلم سبب الارتفاع . فلا تصلح أحوال المسلمين حتى تصلح نفوسهم توقف المعلول على العلة

ولكن ربما رأى الانسان الفساد الحال بالمسلمين في أنفسهم في أهلهم في أمتهم في دينهم في دنياهم وقد سكن في كل عضو منهم علة ، وفي كل جارحة ألم ، وأزمنت الادواء واستطرقت الى بعضها حتى أصبحت كل علة تسوق عللا وكل مرض يهيج أمراضاً وغدا بينها شبه الدور والتسلسل. فيديه في هذا التيه ولا يدري كيف يسري وماذا يصلح وماذا يترك وأي دواء يستعمل وقد اختلفت الأمراض وتبايفت الآلام فيقف حائراً بائراً يائساً يرى ان خلق خلقٍ جديد أهون من اصلاح هذا. فلمثل هذا الحائر المشتبه أضرب المثل الذي ضربه (فكتور هوجو) الشاعر الكبير قال : مثل سلطان الاستبداد مثل مصر بني على بطائح (النيفا) في الروسيا وقد جمد الثلج مادها فشيدت القرى والمنازل على الجليد وسارت المجلات ودارت حركة المعاش في الأسواق كأكثر ما يكون وضرب الرجل برجله الأرض فوجد أصلب من الصخر لا تعمل فيه المعاول ولا يقطعه الديناميت فقيل له ان هذا كله ظل زائل لا يلبث الا عشية أو ضحاها حتى يمحى فلا يكون له أثر فكذب وأنكر وهاله الأمر وبينما هو كذلك واذا بشعاعة من الشمس سالت على هذه الدنيا الصغيرة فاذا هي حلم حالم. قال (هوجو) هذه الشعاعة هي (الحرية) وأقول انا هي (العلم) وقد بينا آنفاً ماهيّة هذا العلم الذي ترقى به الأمة اذا أخذ كل منها بنصيبه منه . فنذكر الآن الوسائل اللازمة لإدخاله في أرض المسلمين . وهي تنحصر في (كيفية نقله) و(كيفية تعليمه) و (المال اللازم لذلك) و (من يقوم بهذا العمل)

أما نقل العلم وايجاده بين المسلمين فله طريقان وهما ترجمته الى لغات المسلمين أو تعليم المسلمين لغة من لغات العلم (وهي الآن الفرنسية والانكليزية والألمانية) لتكون هي لغتهم العلمية ومن يقول بالوجه الأول يذكر انه هو السبيل الذي سلكته كل الأمم السالفة في نقل العلم اليها كما فعل العرب في نقل علوم اليونان والسريان والكلدان وكما فعل الفرنج في نقل علوم العرب حتى انك لتجد الآن كثيراً من مؤلفاتهم المهمة مترجمة الى اللاتينية مطبوعة بها من قرون عدة مع فقدها من بلاد الإسلام ويقول هؤلاء : اننا اذا ترجمنا العلم فقد نقلناه الينا وان تعلمنا اللغات فقط فقد نقلنا افراداً منا الى العلم . وأما من يقول بالوجه الثاني فيرى ان سير النقلة وسير العلم في حركته كفرق ما بين راكب الناقة وراكب البخار فان بدءا من نقطة واحدة الآن فلا يلبثان أن يتفارقا فيسبق العلم النقل ويبقى الناقل أبد الابيد ذنباً له . وان أريد نقل

ما عند القوم من أول الدهر الى اليوم لزم لذلك خمسمائة عام يكونون فيها قد تقدمونا بمثل هذا القدر من السنين . ويقول هؤلاء : لهذا رأينا الأمم الآن غيرت الطريق الأول في نقل العلم الى هذا الطريق كما فعلت اليابان

وعندي أنه يجب التوفيق بين هذين القولين فنجعل تعليم اللغة العلمية إجباريا وبهذا نعطي لكل واحد (مفتاح الجفر) ونرفع الستار عن عالم العلم . ثم نجعل التعليم والتأليف بلسان الأمة التي هو فيها . ومتى فعلنا ذلك امكننا أن نسير مع العلم اذ كتبه وحدوده التي هو عليها تصبح كتبنا وحدودنا وأمكننا أن ننقل منه ماشاء الله ان ننقل منه .

ولا يلزم أن نتعلم اللغة العلمية بحيث نحسن الكتابة والتكلم بها بل يكفينا القدرة على فهمها جيداً والنقل منها كما كان ذلك شأن النقلة الكبار مثل ابن ماسويه وحنين ابن اسحق ورفاعة بك والرشيدي صاحب المادة وامثالهم . ولو حفظ الانسان في كل يوم خمسة مصادر بمشتقاتها لكان رأسه في ختام السنة قاموساً

وانما يجب اذن أن نجعل اللغات الاسلامية في حالة يمكنها بها أن تكون لغة علمية وذلك بنقل ما جدّ من الالفاظ والاصطلاحات اليها وللوصول الى هذا نتخذ أحد المعاجم الموجودة بين أيدينا أصلا ونذيله بما استجد من ذلك ناقلين ألفاظ العلوم واصطلاحات الفنون كما هي بعد تحوير قليل تنتظم به في صيغ اللغة الأصلية . أما الجهد في سد هذا النقص بايجاد ألفاظ من متن اللغة القديمة تؤدي المعاني الجديدة أو استدراك ذلك بواسطة النحت أو الاشتقاق من الجوامد أو نحو ذلك فعبث ولا لزوم له

***

وأما كيفية تعليم العلم وترتيب ذلك فأهم ما يجب أن يعمل فيه أن يكون التعليم عامّا اجباريا على ثلاث طبقات (ابتدائي وثانوي وعال) وان يكون التلامذة بقدر عشرين في المائة من عدد السكان . منهم واحد في المائة للمدارس العالية وسبعة في المائة للثانوية وما بقي فللمدارس الابتدائية . وان يكون الاساتذة على نسبة واحد لكل خمسة عشر تلميذاً في المدارس العالية وواحد لكل ثلاثين في المدارس الثانوية . ولكل خمسين في المدارس الابتدائية

وعلى هذا يجب أن تكون المدارس الابتدائية منتشرة في كل قرية انتشار المساجد والزوايا ، والمدارس الثانوية في كل مركز . والمدارس العليا (أي الجامعة) في أمهات المدن

وينبغي أن تكون الغاية عند الكافة من طالب العلم أن يكون المرء سعيداً في رزقه سعيداً في نفسه وفي فكره وفي بيته وفي أمته لا ان تكون اداء امتحان واخذ شهادة

ثم ان جدول التعليم في المدارس (البروجرام) هو بمثابة الجوهر وكل ماعداه في مقام العرض فعليه يتوقف الفلاح في الحياة أو الخيبة فيها . وطالما حرص الفلاسفة على تبيان أهمية هذا الامر واهتمت به الحكومات . قال جان جاك روسو : « ان أكثر مانتعلمه في المدارس كأنما نتعلمه لنتساه لاغير ذلك اذ معظمه مما لا نستفيد منه في حياتنا مرة واحدة » وقال آخر : « الفساد في التعليم يفسد أمة بأسرها » وقال هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزي « لو لم يكن عندنا من العلم الا ما نعلّمه في المدارس لكانت انكلترا اليوم على ما كانت عليه في القرون الوسطى . فجميع ماعندنا من المعارف الكبرى التي صرنا بها أمة عظيمة في الدنيا لم تنشأ من المدارس المعدة لذلك بل من أكواخ حقيرة وزوايا مهجورة » وقال (كوريون) عن مدارس الصنائع في فرنسا: ان ثلاثة أرباع الوقت يضيع فيها سدى . وقال (هنري دوفيل) في جلسة عامة بأكاديمية العلوم في فرنسا: « اني عضو في المدرسة الجامعة (كلية باريس) من مدة واني اليوم على وشك الاعتزال من الاعمال فأقول لكم قولا يجب أن يملأ كل أذن وهو انه مادامت هذه المدرسة على هذه الحال فلا تسوق الا الى الجهالة » . واذا كان الامر من الاهمية بحيث استدعى ايراد هذه الاقوال عن مدارس اوربا وجب ان نجيله في المنزلة القصوى من الاهتمام به ولا نقلد تلك الأمم بنقل برجراماتها كما هي وقد سمعنا اقوال الفضلاء في قيمة تلك البروجرامات وقلة جدواها في التربية العامة

وليس لي ان اجزم هنا في مسألة هي الآن مشكلة الأمم ومختلف العقلاء وانما رأيي ان يكون التعليم الابتدائي محصوراً في الأمور التي يجب على كل امرئ ان يعلمها وهو علم (مايحفظ الجسم) كمبادئ قواعد الصحة والفسيولوجيا وعلم (مايحفظ النفس) كالاخلاق وما (يحفظ العائلة) كتدبير المنزل وما (يحفظ الأمة) كمبادئ السياسة والتاريخ ونحوه وما (يحفظ العقيدة) وهو مبادئ الالهيات والحكمة الأولى التي هي سلك العلوم الحافظ لها من الضياع كما قدمنا ثم لابد له من علم (مايحفظ الرزق) وهو الزراعة أو الصناعة أو التجارة ومبادئ علم الاقتصاد والحساب الضابط للعمل

واما المدارس الثانوية فيتعلم فيها العلم الذي اختاره المرء لنفسه وما يلزمه من الفنون ولغة اجنبية من لغات العلم

ويتعلم التلميذ في المدرسة العليا تفصيل ما اجمله في المدرسة الثانوية . وتقسم حينئذ المدارس العليا (الكلية) الى اقسام كل يختص بعلم مخصوص .

والاختصاص بالفن الواحد من اهم الأمور في بلوغ الغايات في العلوم اذ العلم يعطيك من نفسه بقدر ماتعطيه من نفسك . ومما يجب تعويد الطلبة عليه السير مع العلم كل يوم وعدم الوقوف طول العمر عند مايتلقونه في المدارس . وذلك بالاطلاع على فهارس (دور الكتب) والوراقين والوقوف على كل مايجد في الفن . قال برتلو الكيماوي المشهور: كنت أقرأ في كل عام فوق مائتي مصنف تنشر في الكيمياء وأحلل ما اجده منها في نفسي تحليلا كيماويا فيتيسر لي بذلك توسيع دائرة هذا العلم واكتشاف أمور كثيرة فيه

***

وأما المال اللازم لذلك فهو لايتجاوز ريالا واحداً عن كل شخص من الأمة وهو ثلث ما تنفقه أمة كالأمة المصرية على الخمر والدخان في كل سنة . والحصول على هذا المال يكون اما من طريق الحكومة بالطلب منها والالحاح عليها والاستمانة في ذلك . أومن طريق الأمة بالاكتتاب العام الدائم والحث عليه بالخطب على المنابر والجرائد وغيرها . وقد كان السيد جمال الدين رأى في ذلك رأيا وهو أن ينشأ صندوق يسمى (صندوق المسلمين) يوضع في كل قرية وعلى كل طريق ومسجد ويجمع فيه المال لاصلاح أحوال المسلمين . ولا بأس من جعله تحت مراقبة ادارة رسمية لتزداد ثقة الناس به كما جعلوا صندوق التوفير تحت ادارة مصلحة البوسطة مثلا . على انه لايعدم الاسلام رجالا في هذا الزمان يقومون على قدم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سالف العصر من بذل كل أموالهم في تأييد العقيدة التي أخذوا بها والدين الذي انتسبوا اليه . روى مسلم في صحيحه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان من أمنّ الناس علي في ماله وصحبته أبا بكر)

أما البحث عمن يقوم بهذا الامر فهو أهم الابحاث وأس المسائل والذي يقوم بهذا الامر إما الامة وإما الحكومة . أما الأمة فما دامت في الصفولية فلا يمكنها أن تميز خيراً من شر أو ان تترك اللعبة وتشتري الكتاب . واما الحكومة فهي اما حكومة وطنية وهي في الغالب الآن مع الأمم الاسلامية في مقام السيد مع العبد فان تعلمت الأمة وارتقت أصبحت معها في مكان الوكيل مع موكله وهيهات هيهات ان تساعد على ذلك . وأما

الحكومة الاجنبية فهي بمثابة الوصي الطماع مع القاصر الغبي فمصلحتها ان تحول بينه وبين الرشد دائما (١) وإذ فقد نفضنا أيدينا من هؤلاء جميعا فلم يبق امل يرجى وأمنية تنتظر الا من فئة قليلة بلغت الرشد فعرفت الحال والمآل اعني بها (عقلاء المسلمين) هذه الفئة هي المسأولة وحدها ولا مسؤلية على عامة الأمة « ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج » وهؤلاء العقلاء بالنسبة الى بقية الأمة القاصرة في مقام الاولياء فهم المسأولون عن خيرها وشرها ونفعها وضرها

لاسبيل الى نجاة المسلمين وإعلاء كلمة الاسلام الا أن يؤلف هؤلاء العقلاء في كل قطر جمعية يسمونها جمعية (مستقبل الاسلام) وان يؤلفوا جمعية أخرى عامة تضم هذه الجمعيات تسمى (المؤتمر الاسلامي) ينعقد في مكة أو في أي مكان يتفق عليه كل سنتين مرة ويكون أعضاؤه مندوبو جمعيات الاقطار المختلفة ووجهته اصلاح

(١) يقول بعض السذج من البسطاء لا حاجة لاهتمام المسلمين بأحوالهم اذ الافرنج لابدان يسوقهم دافع المدنية وروابط الانسانية الى أن يحتلوا بلادهم فيصلحوا أحوالها وينظموا أعمالها كما ذكر ذلك (روسفلت) رئيس جمهورية الولايات المتحدة في خطبة له قال فيها : (أن داعي الانسانية يضطرنا الى احتلال البلاد الضعيفة والتغلب على الأمم المنحطة لترتب احوالهم ونصلح اعمالهم ونرقيهم حتى يصبحوا مثلنا تماما وما نأخذه في اثناء ذلك من المنافع هو اجر ذلك العمل) . اقول ان هذا تغرير للابصار وتضليل للأفكار . اذ الافرنج قد يصلحون الأشياء لا الأشخاص ومثل هذا الاصلاح لايفيد المسلمين وهم في حالة الانحطاط بل هو اشبه بالثياب المهندمة التي يضعها الباعة على تماثيل الخشب . زخرف على تربة . ونقش على خربة . فان الأمة لايمكنها ان تنازع غيرها سبل الحياة الا بنفسها فاذا فقدت نفسها فهي فاقدة لكل شئ . ولا ترجع فائدة هذه الاصلاحات الا على الافرنج انفسهم فمثلهم فيه مثل من يعمر البيت بأجرته ثم يسكنه مدة طويلة حتى اذا خرج منه يوما كان البيت قد عاد الى حالته الاولى .

اما اصلاح الاشخاص الذي هو أس كل اصلاح حقيقي فهو مالا يفعله الافرنج بل ما يدأبون في الغالب لصده ورده . قال بعض نبهاء التونسيين وقد سئل عن حال بلاده (تقدمت البلاد وتأخر اهلها) ولا عجب في ذلك كله ما دامت سنة الاجتماع قد قضت بان تكون حياة القوي في موت الضعيف اه لمؤلف الرسالة .

أحوال المسلمين ونشر التعليم الذي هو وسيلة ذلك

أي دولة قامت، أو راية نصبت، أو أمة خلصت؛ أو وحدة تألفت، الا بالجمعيات، الجمعية عامل لا يموت وأمة في واحد. هل اجتمعت الوحدة الايطالية أو تهيأت الجامعة السلافية والجنسية السكسونية، الا بالجمعيات السرية او الجهرية. هذه الأمة الارمنية والطائفة المقدونية والفئة الكريتية على صغرها في الوجود، وكونها لا تكاد تذكر بين كل موجود، تعمل اعمال الجبابرة في الخلاص من حضيض الأسر، الى اوج النصر، والأمة الاسلامية التي ملأت المشرقين والمغربين تتفقض انتفاض الطائر في شباك الصائد ولا تعمل للنجاة عملا. وكيف ترجو الوصول الى الغاية وهي لا تتقل اليها قدماً، ولا تحرك شفة ولا قلما، ومن طلب شيئاً وجده، ومن تركه فقده.

ولا يعتذر الجبان المفقود القلب بان عقد هذه الجمعيات مما يتعذر حصوله في البلاد الإسلامية الآن اذ اي جمعية انشئت لمثل هذا الغرض فلم تقابل بالكفران، وتحط بالنيران، ولكنها العزيمة التي ترى ان الموت في حياة الأمة خير من الحياة في موتها وانه لا محيص من الصدر او القبر، على ان كثيراً من بلدان الاسلام الآن مفتوحة الابواب لمثل هذا العمل واخصها الممالك التي احتلها الانكليز ويقرب سكانها من نصف المسلمين (١) على ان الممالك الاخرى متى علمت ان المقصد من العمل هو التعليم والتربية. لا يكون لها مجال في منعه. فان منعته في الجهر فهل يمكنها أن تمنعه في السر؟ وان أمسكت الأفواه فهل يمكنها أن تضبط القلوب

اما اولئك الآخرون الذين نراهم ينذرون بفناء الاسلام وانتهاء امده ويستدلون

---

(١) أوجبه كثيرة كانت تحملني دائماً ان أجزم بأنه من الضروري للمسلمين أن يتفقوا مع الانكليز في السياسة العامة سوا في ذلك الذين تحت سلطتهم والذين تحت سلطة الدول الأجنبية الأخرى والمستقلون.

أما الذين تحت سلطتهم فيجب عليهم ذلك لأسباب كثيرة منها أن الانكليز يطلقون في مستعمراتهم حرية الدين والتعليم والقول والتجارة ويكتفون من الفائدة بأن تكون البلاد سوقاً لتجارتهم ومجالا لارتفاقاتهم المالية. ولا شيء أنفع وأجدى على الاسلام من هذه الحرية التي لا توقف نموه الطبيعي ولا يخشى عليه أكثر من وقوف القوة أمام ذلك النمو.

على ذلك بالاحاديث الموضوعة والاقوال التي لفقها اعداء الدين قديماً لإدخال اليأس على قلوب المسلمين فيجب أن نسد افواههم ونوجم افئدتهم ونتلو على اسماعهم قول الله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وقوله تعالى : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »

ايها المسلمون جدوا في هذا امر لتجدوا ، وموتوا فيه لتحيوا . واعرفوا قومكم قبل ان ينكروكم ، واحفظوا بلادكم قبل ان تضيعكم . قد حدثت فيكم حركة عامة فأيدوها

ومنها انه يمكن للأمة الاسلامية اذا ارتقت ان تخلص من نير الانكليز بالاتفاق او بالقوة اذ قوة الانكليز البرية ضعيفة . وقد صعب عليهم ان يخضعوا ثلاثمائة الف من البور اخيراً فكيف يخضعون ثلاثمائة مليون اذا اصبحوا مثل البور

ومنها انه اذا لم يمكن الانكليزيين ظهر انهم فلابد أن يكون غيرهم من الامم الاجنبية اذ الضعف الذي هو علة تسلط أولئك لم يفارقهم فان تسلطت عليهم دول أخرى كالروسيا في آسيا أو المانيا وفرنسا في افريقيا ودهمتهم بما عندها من الجند الذين لا يقلون عن خمسة عشر مليوناً فقل على المسلمين السلام .

على انها اذا لم تتكل عليهم فانها تسد ابواب الحرية الدينية والسياسية في أوجههم . هذه تونس ابطل منها الحج ، والجزائر لا تدخلها جريدة اسلامية حرة كالمؤيد وتركستان لا يقرأ في مدارسها آي الجهاد من كتاب الله ، وجاوه اصبح المسلمون فيها من الضغط والاهانة في مرتبة الحيوان الاعجم .

وأما المسلمون الذين تحت سلطة الدول الأخرى — فللاسباب المتقدمة جميعها ولأن مصلحة الانكليز في خلاصهم من يد تلك الدول وهي أقدر الناس على هذا في الحقيقة اذ هذه الدول (ماعدا الروسيا) لا تصل الى ممالك الاسلام الا من طريق البحر ومفتاح البحر في أيدي الانكليز .

واما المسلمون المستقلون فيجب عليهم الاتفاق مع الانكليز ايضاً لأوجه منها ان مصلحة الانكليز تفضل بقاء هذه الممالك مستقلة غير محكومة بدولة اجنبية وذلك لان روح هذه الأمة التجارة وما دامت الممالك الاسلامية مستقلة فابواب التجارة مفتوحة وطريقها مأمونة فان احتلتها دولة اجنبية فهناك المخافة والخطر . ولهذا

وتحملوا فيها الاذى . هذا صوت القرآن يناديكم . وداعي الله يستدعيكم « يا قومنا أجيبوا داعيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب اليم »

﴿ الهدايا والتقاريظ من باب الآثار الأدبية ﴾

(اللؤلؤ النظيم . في روم التعلم والتعليم) كتيّب لشيخ الاسلام زكريا الانصاري المتوفى سنة ٩٢٦ ذكر فيه شروط الاشتغال بالعلم وآفاته . ثم ذكر العلوم المعروفة في العربية وتعريفاتها . أما ماذكره من الشروط والآفات فهو حسن جداً . ويالَيت أهل الازهر يتدبرون قوله ويسيرون على منهجه كما يقرأون منهجه في الفقه وغيره من كتبه . فقد ذكر من الشروط أن يقصد بكل علم ما وضع له وهم يقصدون بكل علم المناقشة بعبارات كتبه . وذكر منها أن يشتغل كل طالب بالعلم الذي يميل اليه طبعه لان كلاً ميسّرٌ لما خلق له وهم لا يراعون هذا . وذكر منها اختيار الكتب الجيّدة وهم قد التزموا كتبا مفضولة لا حجة لهم على اختيارها الا تقليد الآخر لمن سبقه في ذلك . وذكر منها أن لا يدخل علماً في آخر وهذه الحواشي التي التزموها قد امتزجت فيها العلوم امتزاجاً فصارت أخلاطاً وأمشاجاً

واما ماذكره في تعريفات العلوم وفوائدها فقد جرى فيه على المعروف عند أهل

السبب كان الانكليز احرص الناس على مساعدة هذه الممالك على التقدم والنجاح والبقاء ومن رأى مخاطبات السير لياردسفير انكلترا للباب العالي بسد الحرب الروسية وجد غيرة كبيرة على مستقبل الدولة

أما استيلاء الانكليز أنفسهم على بعض الممالك الاسلامية فهو في الغالب لتحققهم وشك وقوعها في أيدي غيرهم ان لم يسبقوا اليها . على أنه لولا دماء الانكليز وأموالهم لاستولى الروس على القسطنطينية وعلى العجم والافغان وملكت فرنسا مراكش والطليان طرابلس وهكذا . ومن هذه الاسباب يعلم ان الممالك الاسلامية محتاجة في كل وقت الى عضد قوي تتقي به أوربا . والانكليز هم أولى الناس بهذا اذ تجمعهم مع الأمة الاسلامية كراهية أوربا للفريقين وكراهتهما لها

هذه أفكاري في هذا الموضوع ولولا ان هذه المسألة جوهرية بالنسبة الى مستقبل الاسلام لما احتجت للتعرض لها في هذا المقام . اه لمؤلف الرسالة